الومضة ١

فحولة مخصيّة

رفيق علي أحمد

يا صباح الشؤم يندبّ عليك وعلى بني جنسك!

وقع هذا الكلام مجلجلاً بصدى قاعات المدرسة البقاعية، وحيث أنني كنت في حالة تركيز قبل عرض مسرحي لي على ملعبها.

دخلت تلك السيدة الغاضبة القاعة التي كنت قد اخترتها لتجهيز نفسي، خمسينية يتبعها رجل ستّيني. وكأنني غير موجود. مدّت السيدة يدها إلى «عبّها» فأخرجت علبة سجائر. أشعلت واحدة منها. مجّت مجّة عميقة ونفثت دخانها الذي تصاعد في الغرفة دوائر دوائر.

ـ أنت امرأة لا حول لك ولا قوة! أيّ صنف من الرجال الأغبياء أنتم! تتوهمون أنكم من القوة بمكان. أي غشم وأي غباء! ليس لك عليّ يمين... لا يوجد على وجه الأرض رجل قوي وخلفه أو أمامه امرأة. أنا وأنت أولاد ضيع. أراهنك بأنني أستطيع القيام بأي عمل تقوم به أنت، إضافة إلى أولادي الخمسة الذين أنجبتهم وربيتهم حتى ملأوا الدنيا عليّ.

ـ تقومين بأي عمل أقوم به؟ وهل بإمكانك أن ترفعي الصخرة التي أرفعها؟ قال.

ـ هذا هو الغباء بعينه... القوة البدنية للبغال. مسكين أنت يا رجل. أتعرف يا قوي: لو

كشفتُ عن ركبتي عرضاً وفي النية عمداً؛ وهذا من دهائي الذي تسمونه أنتم الرجال كيداً، ومهما كان اسمه فهو سلاح بيدي وبيد بنات جنسي أجبرتنا قوتكم المزيّفة على ابتكاره للدفاع عن النفس والاحتماء من نزواتكم وعواصف غضبكم... بدهائي كما قلت. كشفت عن ركبتي وتمنعت عليك، لجرجرتك دابّاً على أربع خلفي إلى حيث أشاء. قل لي أين هي قوتك وجبروتك يا... رجل.

- قويّات بألسنتهن. وجّه كلامه لي بعد أن ضبطني أصيخ السمع لكلامها... إذا أردت أن تهين رجلاً أفلت عليه امرأة.. أضاف.

- أفلت؟! العقل زينة. أفلت. هرَّة أنا. يا سيدي أنا هرّة والذي يلاعب الهرّة عليه أن يتحمّل خراميشها.. ومن دقّ الباب سمع الجواب.

رمت عقب سيجارتها. داسته بكعب حذائها. حملت دلو تنظيف البلاط والممسحة واختفت في ممر المبنى الداخلي.. وعلى وقع صدى خطواتها، زفر الرجل زفرة عميقة، ناظراً إلى البعيد عبر الباب ثم خرج غير قاصد أي مكان.

ماذا قالت هذه السيدة العاملة؟ وماذا يقول علماء النفس وعلماء الاجتماع في قولها؟ أية قوة تختزنها في داخلها وأي غضب دفين يستفزها للبوح بمحظور الكلام، وهي ابنة هذا الريف، وأي دافع دفعها لأداء هذه المرافعة.

لجرجرتك داباً على أربع!! واللّه صلاح حبكت معه النكتة يومها وأكد كلام هذه السيدة الريفية.

وقتها؛ كنّا في سهرة «مدينية» وكان الساهرون على مستوى ثقافي ووظيفي «رفيع». والحديث في مثل هذه السهرات غالباً ما يكون حول علاقة الزوج بالزوجة، والعكس، يُخرج الساهرون من خلاله جدَّهم بهزلهم. قطع صلاح الحوار بقوله:

- أهون ألف مرّة أن تطبق امرأة غريبة من أن تطبق زوجتك!

فصرخ الحاضرون: حلوة... موفّقة.. حفر وتنزيل.

- هذه طرفة بليغة تختصر كل هذا النقاش وتبيّن بأن المرأة هي صاحبة القرار ومصدر السلطة وكل ما يحكى عن الرجل هو ظلم وتظلّم. سوف أكتب مقالتي القادمة حول هذا الموضوع.

هذا ما قاله سعيد الصحافي والأستاذ الجامعي، قبل أن تنتفض زوجته دلال معقّبة ومستنكرة:

ـ ظلم وتظلّم؟ كل الرجال تحكي إلا أنت. أنت لا دخل لك بحالة هؤلاء الرجال. أنت، أحسن تكتب عن علاقة جدّك بجدّتك فتكتب ساعتئذ عن حالك وعن نظرتك للمرأة وعن علاقتك بها.

قالت هذا الكلام وهيّأت نفسها للرحيل. أما صاحبنا سعيد فأُسقِط في يده. ساد صمت في السهرة وهمهمة لإصلاح ذات البين... خرج سعيد إلى الشرفة. تبعتُه. وعلى دخان سيجارتينا حكى سعيد وقال:

ـ قل لي يا رجل. أسيِّئ أنا إلى هذا الحد؟ تقول لي اكتب عن جدِّك! تقليدي أنا إلى هذه الدرجة؟! بماذا أنا مقصّر بحقها؟ ما الذي أمنعها عنه؟ صحيح أنا فلاح ومربى فلاحين، ولكنني اكتسبت بعضاً من معرفة وتجربتي النضالية تشهد لي في شتى الميادين.. تعيّرني دائماً بازدواجية شخصيتي وبأن نصّي المكتوب غير مفهوم عيشي وأسلوب حياتي.

تريد حرّيتها مني؟! وهل أنا حرّ كي أعطيها حرّيتها؟ تلعب دائماً دور الضحية وتراني جلاّدها. أنا ضحية أكثر منها يا أخي. أنا ضحية وعبد إذا شئت.. أنا عبد لرئيس التحرير: يجبرني أن أتابع الفضائح في «كان» ـ أريد أسماء ومعلومات، صوراً للعارضات. إعفني من قصصك وأبحاثك العلمية. هذا ليس من اختصاص المجلة. أريد فضائح يا أخي. «أكشن» الناس يغريها «الأكشن» يا سعيد. لزوم بيع المجلة.

أنا عبد لزعيم طائفتي. لقمة عيشي معلّقة به. ماذا يحصل لي ولها إذا منع تجديد عقدي في الجامعة هاه؟

أنا مقيّد. مقيّد اقتصادياً. مقيّد تربوياً وثقافياً. مقيّد بقيود العائلة والعشيرة والطائفة. الحرّية كذب وادّعاء. الحرّية وهم.

ربما تكون محقّة بازدواجية شخصيتي: أحياناً أشعر بحرّية المثقف فأقول نصي المتنور الحر، وأحياناً كثيرة أقمع نصي ولغتي وأوارب الرقيب الذي في داخلي مخافة أن تنبذني هذه الدولة المدّعية للحرّية والديمقراطية وتتكلم بلغات ثلاث/ وما زالت قوانينها تستند إلى العصبية والطائفية وتوزع الحصص على هذا الأساس.

أية حرّية ندّعي. أنا أستاذ جامعي يا رجل. أناقش وأحلل موضوعي في الجامعة وفي بالي تلميذ في الصف سوف يقدّم تقريره إلى أولي الأمر الذين يدّعون بأن سلطتهم الدينية هي التي تحلّ وتحرّم لدرجة أنها تحلّ لنفسها أن تحلّ دمي.

لا أعرف. ربما يكون الذي يحاضر الآن هو المثقف الذي فيّ وربما يكون البدوي الذي في داخلي هو الذي يخطئ بحقها وحقي رغماً عني. إنما ما أعرفه هو:

إذا كانت تعتبر نفسها ضحيتي؛ فأنا ضحية هذه العادات وهذه القوانين ولست جلاداً. كما أنني لست من هذا المجتمع الذكوري كما تدّعي. نحن لسنا مجتمعاً بعد. نحن خِصيان. الرجولة في عُرفنا مترابطة مع الذكورة، مع الفحولة: فحولة الثور والتيس. فإذا فقد الرجل فحولته الجنسية، أسقطت عنه صفة الرجولة. الرجولة التي ما زلنا بعيدين كل البعد عن معناها الحقيقي، بمعنى الفكر والمبادئ والقوانين السامية والمساواة.

على كلٍّ، ما يعزّيني أنني أستطيع الاعتراف: بأن اللّه أنعم عليّ بفحولة بلادنا. إنما وبجرأة أقول:

أنا خصي؛ خصي الفكر والإرادة والقرار. وحين أحصل على حرّيتي تكون هذه السيدة الثائرة قد حصلت على حرّيتها وبدون أي فضل مني أو من غيري.

ـ جاهز للعرض؟ اكتمل جمع الناس. نبّهني مساعدي في المسرحية.

ـ هاه؟ أمهلني خمس دقائق كي أتذكر بداية نصي.. وضَع موسيقى البداية.